جودة الحياة من منظور فلسفي

محمد العيد بسي[1]

[1] **جامعة الشهيد حمه لخضر – الوادي**

ملخص: لم تعد الفلسفة المعاصرة اليوم تبحث في المسائل النظرية كما كانت في عهد الإغريق أو اليونان القديمة،ولا في المسائل الالهية كما كانت في العصر الإسلامي والمسيحي الوسيط.

وتعددت جدلية البحث عن مصدر المعرفة وتجاوزت السجال المحتدم بين النظرية العقلية والحسية وكل المفاهيم التي انجرت عنها. وتوجهت اليوم مسايرة مع تطور الفكر المعاصر الذي طغت عليه الصبغة المادية من جراء التطور الرهيب في مجال التكنولوجيا وتعدد النظريات الاقتصادية التي حلت محل النظريات العلم نفسية والاجتماعية والدينية والأخلاقية في فهم وتسيير شؤون الإنسان فكانت تبحث في أهم مسألة تتعلق بالإنسان وهي جودة الحياة. وهذه المداخلة إنما توضح جانبا مهم من هذه المسألة التي نحاول أن نبين فيها معنى الحياة الجيدة التي ترقى بالإنسان إلى تحقيق إنسانيته وطبيعة الحاجيات التي تحقق هذه الجودة. إذ أن حفظ حياة الإنسان مرهون بتوفير هذه الحياة وتحقيق التوازن المتوقف بدوره على تحقيق التكامل بين الحاجيات المادية والمعنوية إذ المشكل لا يكمن في الإجابة على السؤال: بماذا نعيش؟. بل بالقدرة على تحقيق الطريقة السليمة التي تعلمنا كيف نعيش.

الكلمات المفتاح: فلسفة. جودة الحياة. تفسير أسطوري إنسانية. إلزام أخلاقي.

1- مقدمة

الفلسفة تاريخ الأفكار والتمرين على التفكير وفقا للقيم التي تشمل النقد، المساءلة، والفحص والشك، والمنهجية، والتدمير. وهي التزام أخلاقي تجاه ما هو مخالف للفطرة الإنسانية بما في ذلك الهيئة الخلقية والروحية التي انطوت عليها نفس الإنسان ويكون الغرض منها الوصول إلى الحقيقة. وانطلاقا من هذا المفهوم يمكن أن نحقق أمرين أساسيين. الأمر الأول: تجاوز قلق تعريف الفلسفة الذي يعد اكبر مشكل تعرضت له في التاريخ. والأمر الثاني: إثبات أن الفلسفة وان كانت تنطلق من الفكرة إلا أنها لا تبقى حبيستها بل إنها تحاول إن تنزل إلى الممارسة الواقعية التي تشمل وبالأخص حياة الإنسان. هذه الحياة التي تشتمل على جزئياته الأربعة تمثل مفهوم الإنسان وهي الجاني الطبيعي والجانب النفسي والاجتماعي والميتافيزيقي.

وهذا بدوره ينفي عن الفلسفة مسألة التجريد المحض وان كانت في مبادئها الأولى كذلك بل تتعداها إلى الممارسة الواقعية التي تتجسد في تجربة الحياة كواقع معاش ينطلق من مشكلات العصر الذي يرتبط بالسياق النفسي والاجتماعي والفكري بما فيه من اختلاف حول نتائج هذه التجربة هل هي سلبية أم ايجابية؟. إلا أنها في الأخير تتعلق بالحياة وتهتم بجودتها التي تتجلى بوضوح في أهم مباحث الفلسفة وهو مبحث القيم الذي يدور بحثه حول مسالة المبدأ الخلقي الذي يميز الإنسان عن باقي الكائنات الأخرى. هذا الإلزام الذي تكون نتيجة كتجربة لتحقيق السعادة التي تأخذ عدة سياقات لغوية عندما تتحول

إلى ممارسة عملية كالراحة، الطمأنينة، الأمان، الرفاهية، والجودة. وهذا المصطلح الأخير هو الذي يلخص كافة هذه المفاهيم لأنه وباختصار يرتبط بالقيمة المادية التي تظهر نتيجة لتطبيق المبدأ الأخلاقي.

فجودة الحياة وان كانت ترتبط مباشرة بالجانب المادي الذي اهتمت به العلوم المعاصرة المنفصلة عن الفلسفة وتحولت إلى تطبيق المنهج التجريبي لأثار التفكير الإنساني وخاصة علم النفس والاقتصاد ارتبط المصطلح بالمفاهيم التي تجسده من ناحية مادية واقعية كالراحة والرفاهية والتنمية. لكنه في الأخير يعود في أصله الأول إلى المبدأ الأخلاقي الفلسفي الي يبحث في غايته عن تحقيق مفهوم السعادة للإنسان. فما هو مفهوم جودة الحياة من منظور فلسفي وما علاقته بالتنمية المستدامة؟.

2 _ مفهوم جودة الحياة:

تدل البحوث المعاصرة في علم النفس وعلم الاجتماع على ان اهتمام الباحثين بمفهوم جودة الحياة قد بدا منذ بداية النصف الثاني من القرن العشرين كمفهوم مرتبط بعلم النفس الذي يهتم بالجانب الايجابي لحياة الإنسان كبديل للجانب السلبي، أي الانتقال من مفهوم العلاج إلى مفهوم التطور وظهرت عدة مصطلحات تترجم هذا الاهتمام بداية بمفهوم الكفاية ثم الجودة الشاملة، ثم الجودة المتعلقة بالفرد كذات مستقلة ومتميزة عن الذوات الأخرى المتاخمة له والموجودة معه.

لكن تاريخ بداية هذا المصطلح يعود في حقيقته إلى العصر اليوناني وبالتحديد في عصر الفيلسوف (ارسطو322ق.م) الذي يعتبر كاب الأخلاق أهم المصادر المبكرة لتعريف جودة الحياة، اذ يقول: << إن كلا من العامة والدهماء وأصحاب الطبقة العليا يدركون الحية الجديدة بطريقة واحدة وهي أن يكونوا سعداء>> (أرسطو، 1924، ص121).

ومن هذا المنطلق فان جودة الحياة من منظور فلسفي ارتبط ارتباطا مباشرا بالسعادة التي تنطوي على عدة مفاهيم فلسفية أخلاقية كبرى كمفهوم الحرية، والمسؤولية، والخير والشر، واللذة والألم، والمصلحة والواجب. وهذه المصطلحات هي التي تعبر عنها النفس في صورة سلوك يومي يتراوح بين القبول والرفض والاستحسان والاستهجان. ولهذا كانت النفس موضوع اهتمام واضح لدى الفلاسفة فلا يخلوا بحث فيلسوف من مبحث النفس وخاصة الفلاسفة العقلانيين مثل *أفلاطون وديكارت وابن سينا..* وعلاقة هذه النفس بالبدن.

فقد نظر ابيقور إلى النفس نظرة مادية فهي الغلة الرئيسية للإحساس لكن لا يتسنى لها ذلك إلا إذا سكنت البدن (ابيقور، بدون سنة نشر، ص 184).

وقسمها أفلاطون إلى ثلاثة أقسام، عاقلة وغضبية وشهوانية. أما أرسطو فقد رأى بأنها كمال أول الجسم الطبيعي الحي وهي لا توجد إلا مع البدن (وولترستيس، بدون سنة نشر، ص194).

أما في الفلسفة الإسلامية فارتبط هذا المفهوم أي مفهوم النفس بالقيم فقالوا << إن النفس مجبولة على شيم مهملة وأخلاق مرسلة لا يستغني محمود ها مع التأديب ولا يكتفي بالمرض منها من التهذيب (أبو الحسن الماوردي، بدون سنة نشر، ص227)

واعتبر امانويل كانت موضوع النفس ميتافيزيقي إلى جانب وجود الله والحرية، لا يمكن دراسته إلا عن طريق التجريد والتأمل العقلي. لكن ظهور الاتجاهات العلمية في فروع المعرفة أدى إلى التفكير في اتخاذ

خطوات جديدة من اجل دراسة النفس دراسة علمية وتشكلت من اجل هذا المدارس التي نقلت البحوث من الدراسات النظرية إلى العلمية واستطاع * فونت 1875* أن ينشا أول معمل تجريبي يعتمد على الآلة والقياس في دراسة الظاهرة النفسية والحالة الجسمية (عرفان عبد الحميد فتاح،1989، ص84).

وهذا يؤدي إلى القول بان مفهوم جودة الحياة ارتبط بالنفس وحتى يتحقق كان لابد من وجود إلية لتحقيقه وذلك عن طريق توفير الراحة للبدن الذي يحمل أعباء النفس الإنسانية.

ومن هنا كان الإشكال الكبير الذي يطرح في هذا المجال هو: هل جودة الحياة حالة مادية تتعلق بالمعيشة اليومية وما تحمله من ايجابيات لراحة النفس: أم هي انتعاش لهذه القيم الماورائية التي تحاول دوما الظهور كسلوك واقعي يعبر عن حالة النفس الحقيقية والمتخفية وراء قضبان الحس؟. وهي الإشكالية التي مازال لم يجب عنها علم النفس إلى اليوم رغم علميته التي يطبقها في هذا المجال.

3 _ الفلسفة والحياة:

الفلسفة ترف فكري تاملي ينطلق من الذات ليشمل العالم ويفهم الوجود بكل مكوناته بل انه يسعى الى معرفة العلة القصوى لهذا الوجود، فاهم سؤال ولد التفكير ا واهم فكرة ولدت السؤال هو معنى الوجود، وهو اول مبحث في الفلسفة منه تفرعت كل المباحث الاخرى فسؤال (من اين واين والى اين) مازال يؤرق تفكير الانسان من زمن التفكير الاسطوري الذي بدا مع ظهور الحضارات الشرقية قبل اليونان الى غاية التفكير المعاصر في ظل تطور الحضارات التقنية وتحول الحياة الى قانون مادي يبدا من نقطة تسمى اليدا وينتهي الى اخرى تسمى الهدف او الغاية.

فتاريخ الفلسفة هو تاريخ اولئك المفكرين الذين نبغوا في العالم واحسنوا الى الانسانية بأبحاثهم الفلسفية وبيان العقائد والنظم التي قرروها. وليس الفيلسوف رئيسا ولا عالما او راهب دين بل هو انسان يفكر بحرية في القضايا والمسائل العامة التي تقع تحت حسه وادراكه. والفلسفة ليست محصورة في شاب دون غيره او فئة من الناس دون اخرى بل ان كل انسان فيلسوف ونحن نتفلسف كما نتنفس وان اشد الناس كرها للفلسفة هم الذين يمارسون الفلسفة بحق لان غاية الفلسفة التساؤل حول حقيقة الاشياء ومصدرها وما الغاية منها وكيف وجدت وما مصيرها ؟. هل المهم ان نعيش ام الاهم كيف نعيش؟.6

ويمكن ان نلمس الفلسفة في الحياة كممارسة عملية من خلال اختلاف الافكار الذي سجله لنا تاريخ الفكر والذي تحول بسرعة الى مذاهب وكل مذهب يعبر في غايته على طريقة في الحياة انطلاقا من الفكرة. فالذين ربطوا الفلسفة بالأسطورة جعلوا من الاه الغائب الحاضر الذي يعتبر قوة خفية تتجسد في كوكب او حيوان او ماء او هواء او نار او تراب او انسان مصدرا اوليا لحياة الانسان وسعادته وان الحياة الحقيقية هي البحث عن تحقيق التكامل بين هذا الانسان وهذا الاله فقد جاء في الشريعة البراهمية ما يلي: <<في احترام المرأة رضى الآلهة، فليس في حراسة الرجل للمرأة صيانة لها انما هي التي تصون نفسها بنفسها، اذا ارادت ولا يجب ضرب المرأة ولو بزهرة، واحترام الوالد اجل من احترام مائة معلم واحترام الولدة اجل من احترام الف والد وغاية النغس الوصول الى الاتحاد ببراهمة، فالنفوس الطاهرة تنال هذا القصد أما الشريرة فتسقط في نارك، والنفوس التي كانت بين الخير والشر فيصير تطهيرها بتقمصها في جسم حيوان أو إنسان.>>(وولترستيس، ص7).

وظهرت المدارس الصوفية كالبوذية التي ترى الحياة مكونة من مفاهيم اخلاقية تؤدي الى الوصول الى النرفانا أو عالم الصفا الذي يحقق السعادة، ويضع الفرق بين الخير والشر، والنور والظلمة، الفكر والمادة، الصواب والخطأ.

واعتبرت المدرسة الكلبية ان الحياة تجرد من الذات والزهد المطلق فيها للوصول الى حقيقتها. ثم تجسدت في قوانين اللذة والالم عند المدرسة الابيقورية، وارتبطت في الفلسفة الاسلامية والمسيحية بالقانون الالاهي الذي يعد المعنى الحقيقي للحياة وهو اساس المبدأ الذي ننطلق منه لتحقيق هذه الغاية، وبدأت هذه الافكار في الفلسفة الحديثة والمعاصرة تأخذ منحى أخر تتابع للتطور العلمي والتقني الذي غير كل المفاهيم الفلسفية القديمة وارتبط بمفهوم العلة او السببية اذ كل ما يحدث يجب ان يكون له علة او سبب لوجوده فظهرت اخلاق المنفعة والمصلحة وأخلاق الواجب والقانون ثم انحصر مفهوم الحياة في مسألة الوجود عند ديكارت وسارتر.

وبظهور المذاهب الاقتصادية الرأسمالية والاشتراكية أصبح مفهوم الحياة يرتبط بمعنى الحاجة المادية التي تحقق الكفاية بمعنى الحاجة المادية التي تحقق الكفاية المعيشية وهو ما سلب عنها طابعها الفلسفي التجريدي وتحولت الحياة إلى مجموعة من القوانين الاقتصادية ترتبط بمفاهيم العمل الإنتاج والقيمة. ما أدخل الإنسان في صراع جديد خاصة عندما حقق الإنسان كل هذه الحاجات وتمكن من تحقيق هذه المفاهيم لكنه وللأسف فقد إنسانية الإنسان.

4 _ الدين الأخلاق وفلسفة الحياة:

إذا كانت الأخلاق هي ذلك الفعل الإلزامي الذي يعبر عن قيمتي الخير والشر والذي يؤدي إلى فعلي الاستحسان والاستهجان وإذا كان الدين هو النص القائم على مبدأ غيبي يستمد من طرف القوة العليا وهي الله. فإن غاية الأخلاق والدين هو تنظيم الحياة الإنسانية بإعطائها بعدا يعبر فعلا عن قيمة هذا الإنسان فقد تتصادم القاعدة الخلقية بالمبدأ الديني وقد تتوافق في بعض الأحيان لكنها تركز في الأخير على الإنسان كسلوك واقعي يحمل معنى يجسد حقيقة الغاية من هذا الوجود. فالدين هو الأخلاق حينما نفكر والأخلاق هي الدين حينما نفعل.

إن التصرفات اللاأخلاقية لا توصف بأنها تصرفات لا إنسانية فالأخلاق يلزم عنها اللاإنسانية وكلما زاد الإنسان أخلاقية اعتبرناه زيادة في الإنسانية لان التقدم العقلي قد يضر من تقدم الإنسان حينما تصبح مدمرة له.

وهذا ما يبين علاقة الدين بالأخلاق بل إن كل أخلاق في أصلها الأول مبدأ ديني فمفهوم التضامن الأصل فيه الإحسان في الدين، ومفهوم المواطنة هو ترجمة لمفهوم الإخوة ليتماشى مع حركية العصر ومقتضى الحداثة والتنوير العقلي.

ولهذا كان الدين مكملا للأخلاق باعتبار أن الأخلاق مبدأ عقلي يحتاج إلى نص ديني حتى يتمكن من تطبيقه على ارض الواقع ونتيجته الوحيدة هي تحقيق الحياة الجيدة للإنسان التي تحافظ على بقائه كانسان وقد نبع من هذا التكامل مفهوم القانون الذي اخذ عدة أشكال، العادات، الأعراف، ثم القوانين الوضعية (جميل صليبا، ص 179).

.وسواء كان القانون أمر كلي ينطبق على مجموعة المبادئ القبلية التي تتخذ أساسا للمعرفة او مجموع القرارات المقدسة فان القانون على حسب التفسير الهيجلي ظاهرة من ظواهر التفكير الإنسانية التي تتجلى فيها إرادة الإنسان وفقط باعتبار الكائن الحر بالضرورة ولا يمكن أن يوجد إلا حرا. وفي كل مجال من مجالات القانون يوجد فيها معنى من معاني الحرية المحققة بالفعل(عبد الرحمان بدوي،1996، ص15).

5 _ الاقتصاد وفلسفة الحياة:

بدأ الاقتصاد قسما من أقسام الفلسفة العامة وفروعها وكان يطلق عليه قديما اسم تدبير المنزل إلى جانب السياسة ويعود لفظه إلى أرسطو ويعني<< علم مبادئ تدبير شؤون المنزل>> (جميل صليبا،،ص111). وكان يتجلى في شكل اقتصاد سياسي يترجم مجموعة القوانين التي تحدد تدابير الحياة عند الإنسان بل انه يعرض بداية خروج الإنسان من حياة التبعية للطبيعة إلى السيطرة عليها من مفهوم الجمع الى مفهوم الإنتاج ومن مفهوم التبادل إلى مفهوم العرض والطلب، ومن مفهوم السيد والعبد إلى مفهوم العامل ورب العمل. لكنه تحول مثل العلوم الأخرى إلى الدراسة العلمية الموضوعية للحياة المركبة عند الإنسان رغم رفض الكثير من العلماء هذا التحول وكان في بدايته مع ادم سميث يبحث عن طبيعة الثروة للأمم وأسبابها وارتبط عند كارل ماركس بالحاجة إلى الإنتاج وفي المجمل هو البحث عن قوانين الحياة الاقتصادية كما هي (جميل صليبا،،ص112).

وقد ارتبط الاقتصاد السياسي بمفاهيم أخلاقية تعبر عن حياة الإنسان كالحرية الاقتصادية في العمل والإنتاج والكسب وتحقيق السعادة الاجتماعية وحفظ التوازن الاقتصادي في توزيع الثروة وتحديد مفهوم الحق والواجب وتنظيم الأسرة والمجتمع والدولة.

فالاقتصاد من هذا الباب لم يستطع أن ينفصل عن الفلسفة التي تحدد له الفكرة التي يبني عليها السلوك الاقتصادي وهنا لابد من تزويد المبادئ الاقتصادية بكل تراكمات الأفكار الأخلاقية والدينية والاجتماعية التي تؤسس المذهب الاقتصادي حتى يكون ناجحا لان نجاحه مرتبط ارتباطا كاملا بنمط المعيشة القائم على مبدأ عقلي يستمد من الأخلاق والدين والعرف.

فالسلوك الاقتصادي لا يمكن تفسيره بقدر ما يمكن فهمه ثم محاولة البناء على هذا الفهم الذي تكون غايته معرفة الإحداث في خصوصيتها وتعني إدراك الكل النفسي المعيش من طريق الحدس أو التأويل بمنهج يضع الذات نفسها مكان ذات أخرى لتفهمها (عبد الرزاق بالعجوز،2015، ص19).

6- الخاتمة:

وخلاصة القول إن الحياة مبدأ وجودي للإنسان يرتبط بكل مكونات الوجود المادية التي تسعى إلى تحقيق الغاية من هذا الوجود وهي السيطرة عليه عن طريق ممارسة المفاهيم الأخلاقية الكبرى كالحرية والعدالة والتعاون والإحساس بالمسؤولية. وهي آليات الحركة الإنسانية في هذا الوجود الذي نعبر عنه بالمفهوم الاقتصادي وهو الجودة التي تحافظ على البقاء والاستمرارية فيه وهو المعنى السامي للحياة.

*المراجع:

1_ أرسطو: كتاب الأخلاق إلى نيقوماخوس، دار الكتب المصرية بالقاهرة، ط1، 1924.

2 _ ابيقور: الرسائل والحكم، دراسة وترجمة جلال الدين سعد، الدار العربية للكتاب، تونس.

3 _ وولترستيس: تاريخ الفلسفة، تاريخ الفلسفة اليونانية، ترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت،ط2.

4 _ أبو الحسن الماوردي: أدب الدنيا والدين، الشركة الجزائرية اللبنانية، الجزائر.

5 _ عرفان عبد الحميد فتاح: المدخل إلى معاني الفلسفة، دار الجيل، بيروت، 1998.

8 _ جميل صليبا: المعجم الفلسفي،ج1،دار الكتاب اللبناني، ط1.

9 _ عبد الرحمان بدوي؛ فلسفة القانون والسياسة عند هيجل، دار الشروق، القاهرة،ط1، 1996.

12 _ عبد الرزاق بالعقروز: مدخل الى الفلسفة العامة، كلمة للنشر والتوزيع،بيروت،ط1،2015.